٣ ـ مصطفى كمال *

سيرة حياته

للكاتب الإنجليزي أرمسترونج

تلخيص وتعليق حنفي غالي

وعاش مصطفى كمال مع أمه في سالونيك بعد وفاة زوجها الذي كان يبغضه وينفر منه ، وهناك حاول أن ينشىء مع زملائه من صغار الضباط فرعاً لجمعية الوطن ، فأخفق لأنهم كانوا في ريبة من أمره ، فلم يؤيدوه ولم يعارضوه ، كأنما كانوا يريدون أن يقفوا على حقيقته ويتبينوا أمره قبل أن يتصلوا به ويتعاونوا معه في أمثال هذه المغامرات . وأخيراً أسر إليه أحدهم أن بسالونيك جمعية ثورية كبيرة تدعى جمعية الاتحاد والترقي ، يجتمع أعضاؤها في منازل بعض اليهود من رعايا إيطاليا ، فيستطيعون أن يدبروا الخطط ، ويتشاوروا في أمرهم بمأمن من بطش الحكومة ، ومنجاة من عيون الخليفة ، وبعد أن اختبرت الجمعية إخلاص بطلنا ، وأنست منه نفساً ثائرة وقلباً قلقاً ، دعته إلى الانضمام اليها فتم لها ما تريد . وانخرط مصطفى في سلك أعضائها ، فألفى نفسه في جو لا يلائمه ولا يتفق وميوله ، إذ رأى من حوله أشخاصاً يتحدثون في أمور لا تعنيه ولا تتصل بتركيا التي يحبها ويفنى في سبيلها ، فإذا يهمه من متاعب اليهود وما يلاقونه من اضطهاد في روسيا ، فهو تركي قبل كل شيء ، وهو معتز بتركيته تياه بها ، ولا غرض له سوى إنقاذ تركيا من استبداد الخليفة ومطامع الدول الأجنبية ، وفضلا عن ذلك فهو ما زال في الجمعية « أخا » صغيراً ، عليه أن يتلقى الاوامر بالطاعة والأذعان ، وعليه أن ينفذها بأمانة ونشاط . وهذا ما لا يرضي بطلنا الذي خلق ليأمر ويسود لا ليأتمر ويخضع ، فبرم بالجمعية وسخط عليها ، وأخذ ينقدها نقداً حاداً قارصاً غير متلطف فيه ولا متهاون قائلا : إنه يسمع مناقشات بيزنطية لا يعززها عمل حاسم ، وهو يريد خطة محكمة دقيقة ، ينفذها بكل ما وسعه من جهد ، وكل ما في نفسه من حرارة الإيمان والوطنية ، ولم يكن يرعى للرؤساء حرمة أو مقاماً ، فمن هم أولئك الذين يستأثرون بالنفوذ ويستبدون بالأمر دونه ؟ أأنور ذلك المجازف المتهور ، أم جمال ذلك المظلم العقل المضطرب الذهن ، أم داود ذلك اليهودي الدنيء الذي انقلب مسلماً ، أم نيازي ذلك الألباني فاقد التوازن ، أم طلعت ذلك الموظف المصلحي والدب البطيء ، فهكذا كان يراهم بطلنا ، ويرى نفسه فوقهم أجمعين ، وهكذا نرى العظماء شديدي الأنانية عظام الثقة بأنفسهم ، وهي صفة لابد منها لمن يتطلعون الى مسابح الأفلاك . أما من ضعفت ثقته بنفسه ، وتنحى عن نفسه لغيره ، فليقنع إذن بمدارج الأسماك . وكان يخاطبهم مخاطبة الأستاذ لتلميذه ، وحدث ذات مرة أن كانوا يتحدثون عن جمال ويمتدحون وطنيته فقاطعهم مصطفى كمال متهكما بهم ، وأخذ يلقي عليهم درساً عن العظمة الحقيقية . فلما التقى بجمال في اليوم التالي صارحه برأيه فيه قائلاً له إنه طالب شهرة ، وألقى عليه ما ألقى على زملائه بالأمس

وقد كان زملاؤه الضباط يبغضونه لاعتداده بنفسه واستصغاره لشأنهم وسخريه منهم ، كما كان اليهود لا يثقون به ، فلم يرتق الى مراكز الماسونية العليا ، وظل بعيداً عن مركز القيادة أو مبعداً عنه .

ولم يكن في البيت أيسر نفساً ولا ألين جانباً ، ولم يكن يسمح لأحد غير أمه أن ينتقده ، وكان مع ذلك يأبى عليها التدخل في عمله أو المساس بكبريائه . وقد اجتمع في يوم من الأيام ببعض زملائه بالمنزل ، فأخذ الخدم يتسمعون حديثهم من وراء الأبواب وأخبروا أمه ، فعارضت فكرته ، فحاول أن يقنعها بصوابها ، فركبت رأسها وأصرت على رأيها ، وما كان الاثنان ليتفقا ، فقد كانت هي امرأة صادقة الايمان وثيقة الاخلاص لقديمها ، بينما ابنها لم يكن يؤمن بشيء أو يجل شيئاً على الاطلاق ؛ وأخيراً سايرت الأم الرؤوم ولدها العزيز في طريقه برغم اعتقادها في خطئه ، خشية أن يهجر المنزل فيشق عليها فراقه ، ولكنها ظلت تحذره سوء المنقلب وظلام المصير ، قائلة : إن من الحمق التآمر بالخليفة والدين

وقد سئم بطلنا الحياة المنزلية بما يثقلها من ثرثرة الأقارب ، وتجسس النساء ، وفضول الخدم ، إذ لم يكن أبغض اليه من الحد من حريته ، فهو يريد أن يكون سيد نفسه مهما كلفه ذلك من مشقة وثمن ، فهجر المنزل ، ولكن ظل حبل الود متصلاً بينه وبين أمه ، فكان يزورها ويصغي إليها

* انظر عددي ٦١ و٦٥ من الرسالة

وكان ينفق بياض النهار مكباً على عمله ، كما كان ينفق معظم لياليه فى المقاهى حيث يجتمع بزملائه أحياناً أو يذهبون الى مكان خفى بعيد ، حيث يشربون ويدخنون ويدبرون الخطط للثورة المقبلة

على أن بطلنا لم يكن ليرضى أن يكون جندياً خاملاً مغموراً ، بل يريد أن يكون قائداً له شرف النصر وفخار الغلبة والقهر ، ولم يكن يحب الرؤساء أن يقربوه منهم ، فظل على توالى الأيام اتصاله بالجمعية واشتراكه فى أعمالها ، وأصبح أكثر ميلاً للعزلة والصمت

وبينما كان بطلنا فى بعده وعزلته إذا بالثورة تشب من غير إنذار ، فسار نيازى على رأس فئة قليلة من الثائرين الى جبال مقدونيا الجنوبية متحدياً الحكومة ، وحذا حذوه أنور ، وأصدر فى الحال منشوراً يعلن فيه الثورة . أما بطلنا فظل فى سكونه وعزلته ، وأبى أن يشاركهم ، إذ لم يكن من طبعه المغامرة فى مشروع إلا إذا كان متين الأساس مقدراً له بعض النجاح ؛ ولكن هذه المغامرة الجنونية نجحت بأعجوبة ، وساعد على ذلك سخط رجال الجيش على الحكومة لتأخر مرتباتهم ، فأبى بعضهم أن يحارب بنى وطنهم ، وانضم آخرون الى الثوار فسقطت حكومة الظلم كما تسقط أوراق الشجر أمام الريح الضعيفة ، وقبل عبد الحميد الحكم الدستورى قائلا : إنه كان يعمل لهذه الغاية من عهد بعيد ! ! وأنحى باللائمة على مستشاريه ، وألقى عليهم تبعة الماضى الفاسد . وألغى الجاسوسية ، ورحب بالثوار ، وعاد نيازى وأنور ، وقد أسكرتهم نشوة الانتصار ، وتوجت رؤوسهم أكاليل الغار ، فاستقبلهم الشعب بحماسة فائقة تجل عن الوصف ، وقد لقيهما مصطفى برفقة بعض زملائه ، ووقف الجميع فى شرفة أحد فنادق سالونيك ، وأعلن أنور منها الدستور على الشعب الذى يرمقه بعين الاعجاب والاجلال ، ووقف من خلفه مصطفى وإن ما به من الهم والحسد ليكاد يقطع قلبه ويذهب بنفسه

وقد عاد الى الآستانة جميع من تفاهم عبد الحميد ، وأخذوا يتنازعون السلطة والحكم ، وأرسل أنور ملحقاً حربياً فى سفارة برلين ، أما نيازى فعاد الى ألبانيا حيث اغتيل ، أما مصطفى كمال فأرسل على رأس بعثة ليتفقد حال جامية طرابلس ، ويكتب عنها تقريراً لحكومة الآستانة

وقد خشيت دول أوربا أن يستميد الاتراك قوتهم ، فانتهزت فرصة هذه الفتنة الداخلية لتصفى مع الأتراك حسابها ، فاستولت النمسا على البوسنة والهرسك ، واحتلت اليونان كريد ، وأعلنت بلغاريا استقلالها تظاهرها الروسيا

أما فى داخل الامبراطورية فقد شبت الثورة ببلاد العرب وألبانيا ، واحتدم النزاع بين المسلمين والمسيحيين واشرأبت الرجعية بعنقها تريد استعادة سلطانها البائد ، فلجأت الى الجيش والشعب لأثارته على أولئك اليهود والملاحدة الذين يريدون هدم الدين ، وتقويض خلافة المسلمين ، ونجحت هذه النعاية الخداعة البراقة ، وثار الجنود فى الآستانة ، وقتلوا ضباطهم أو سجنوهم ، وأعلنوا إخلاصهم للدين وولاءهم لأمير المؤمنين ، واستولوا على الآستانة وطردوا منها أعضاء الجمعية ، فلجأوا الى محمود شوكت قائد الجيش بمقدونيا فتردد بادىء الأمر لأنه كان من المقربين الى عبد الحميد ، ولكنهم وفقوا أخيراً الى إغرائه بمساعدتهم والعمل معهم فسير أنور — وكان قد عاد مسرعاً من برلين — على رأس فرقة من الفرسان كما ناط بمصطفى — وكان قد عاد من طرابلس — رئاسة أركان الحرب ، وتقدم الجميع نحو الآستانة فقضوا على الثورة الداخلية ، وقبضوا على عبد الحميد ووضعوه فى « فيلا » صغيرة بسالونيك تحت رقابة الضابط فتحى المقدونى وأعادوا الجمعية الى الحكم

وكان أنور إبان هذه الحوادث ، الشخصية الفذة ، والبطل البارز ، ترمقه العيون بالأعجاب والحب ، لأنه كان جندياً مقداماً جريئاً ، كثير الاتجاه الى الجمهورية ، فواتته الشهرة وسعت اليه ، بينما ذهب مصطفى كمال فى غمار النسيان والاهمال ، إذ لم يحظ باعجاب الشعب لتردده ، ولم يكسب رضاء الرؤساء لصلفه ، حتى قالوا عنه « إنه ذو كفاية ممتازة ، ولكنه جامد النسيم ، كثير التمرد على كل أمر ، قارص النقد لكل شخص ، شديد الغرور ، لا يميل اليه أحد ، وهو كثير الاعتداد برأيه ، لا يشرك معه أحداً فى الأمر »

وأبعدوه عن الحكم وأبقوه فى منصبه ، فأكب على واجبه يؤديه بهمة ونشاط ، وأخذ يدرس تاريخ نابليون وفون ملتكة . ثم رقى فى سنة ١٩١١ الى رياسة أركان حرب القسم الثالث من الجيش بمقدونيا

وقد أرسل فى بعثة حربية الى باريس تحت اشراف الجنرال على رضا ، وأعجب رئيسه به وأثنى عليه . ولما عاد نيط به الأشراف

على مدرسة الضباط بسالونيك ، وبرغم كون بطلنا جنديا بفطرته فقد كان يتطلع بنظره الى السياسة دائماً ، ويحاول أن يجرب طالعه فيها ، فلم يرضه هذا المنصب ، وأخذ ينقد زعماء جمعية الاتحاد والترقى نقداً لاذعاً فى غير تحفظ ولا خشية قائلا إنهم ليسوا جديرين بالحكم ، وإن الدول أخذ طمعها يشتد ويدها تطول عن ذى قبل ، ولا سيما ألمانيا التى قبضت على مرافق البلاد الحيوية وسيطرت على سكة حديد بغداد . أما فى الداخل فلا يزال السخط عاما والفقر والبؤس مخيمين ، ويجب القيام بعمل حاسم لاصلاح الحال . وأخذ الضباط يصغون اليه ويستمعون له ويلتفون حوله فأرضى هذا كبرياءه ، وأصبح يشعر أنه ذو مكانة وخطر ، وأنه يقترب رويداً رويداً من قيادة حركة ذات شأن ، ونمى هذا الى سمع محمود شوكت ، وكان يعرف بطلنا ويقدر خطره ، لا سيما فى البلقان مصدر كل فتنة ومهد كل حركة ، فنقله الى منصب آخر ، وكان شوكت فى تصرفه هذا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد سهل المنصب الجديد لبطلنا بلوغ دعوته الى أنصار أكثر من ذى قبل ، ولم يخفه تهديد شوكت ووعيده ، وظل فى مهاجمته لرجال الجمعية وحملته عليهم غير خائف ولا متحفظ ؛ كما أخذ يستحث أنصاره على طرد الأجانب لتصبح « تركيا للأتراك »

ولقد عظم خطر بطلنا حتى كتب أعوان الحكومة اليها ينذرونها ويحذرونها منه ويستحثونها على تدارك الأمر ، وطلبت الجمعية معاقبته ، فبعث اليه شوكت يتهمه بأنه يحرض الجنود على الثورة ، فرد عليه رداً لم يكف فى نظر شوكت لدحض التهمة ونفيها عنه ، كذلك لم يجد شوكت أدلة قوية تثبت إدانته فنقله الى المكتب الحربى فى الأستانة ليبعده عن البلقان مستودع البارود ومنبع الخطر وليستطيع مراقبة حركاته وتتبع خطواته ، فلم يرده هذا عن خطته ، وأخذ يتقرب من بعض سياسى الجمعية الذين كانوا يبغضون الألمان ويمقتون سفيرهم صديق أنور الذى أخذ يعمل بنشاط وكياسة لجعل تركيا آلة فى يد ألمانيا ، وأخذوا هم يشجعونه بعض الشىء ، إذ رأوا إمكان استخدامه ضد أنور عند الحاجة ، ولكنهم مع ذلك لم يستسيغوه ولم يقربوه كل القرب لذهابه بنفسه ، فحز ذلك فى نفسه وآلمه أشد الألم

وبينما هو يجاهد خصومه ويجاهدونه إذا بإيطاليا تنزل جنودها فى طرابلس وتحتل الساحل ؟

منفى غالى

الشمس فى الطلوع

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

الشمس قد طلعت بوجه أروع   فوقفت مبهوتاً لحسن المطلع
وجهٌ كما تهوى الطبيعةُ سافرٌ   ما إنْ عليه سوى السَّنى من برقع
فى موكب فخم يزيد جلالَه   لَمعُ الأشعة فى الفضاء الأوسع
هى فى علاية أوجها وشعاعُها   فى كل ما تبدو له من موقع
بيضاء لولا ما بها من وخزة   لذّاعة من حسنها لم أشبع
إنى أدينُ بحسنها لا كالذى   أملَى عليه جهلُه ألَّا يعى
مرّت تعاورُها الدهورُ وحسنُها   أبداً جديد بالشباب المُمْتِع

* * *

أنظر اليها فهْىَ تحكى غادةً   ترنو اليك من المحلّ الأرفع
ولقد بدت فى خَيْلَمٍ (١) من ضوئها   أحسِنْ بها لمّا بدت فى الخيلع
تجرى بلا تعب إلى الغايات فى   صمتٍ على لَقَمِ (٢) الطريق المَهْيَع
لا تحرم الأرضُ الضياء فان جلت   عن موضع منها بدت فى موضع
تمتدُّ من شغفٍ لها الأنظار من   حَسْرى تكلّ من العياء وضُلَّع

* * *

ظهرت على متن السحاب كأنها   نارٌ تُشَبّ على كثيبٍ أسفع
ولقد علتْها وهى تبرح أفقها   وطفاءُ حانيةٌ حُنُوّ المُرضع
ودنا يطوف بها الغمام كمُصطلٍ   بالنار يُذكى جمرَها أو مُترع
قد كان منها القرص أحمرَ قانياً   حتى اختفى فى العارض المتجمّع
أمّا الغيوم فتلك بعد تراكمٍ   أخذته بين صدورها والأذرع
صُوَرٌ محبّبةٌ وليس بمنكرٍ   حوجُ الحياة إلى الجمال الأروع
الشمس فى طول النهار تجيئنى   والشمس حيث ذهبتُ ذاهبةٌ معى
وكأنما بينى وبين شعاعها   نسبٌ قديمٌ ما لأوّله أعى
ما ذرّ قرنُ الشمس إلا اهتزّ من   فرح فؤادٌ تحتويه أضلعى

* * *

---

(١) ثوب بلا أكمام   (٢) معظم الطريق